صانع الأقنعة

إسلام محمود حسن

صانع الأقنعة / قصص

إسلام محمود حسن

الطبعة الأولى ، ٢٠١٠

دار اكتب للنشر والتوزيع

القاهرة ، ١ش المعهد الديني ، المرج

موبايل : ٠١١٠٦٢٢١٠٣

E – mail : dar_oktob@gawab.com

المدير العام :

يحيى هاشم

تصميم الغلاف :

حاتم عرفة

رقم الإيداع : ٢٠١٠/١١٨٠١

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ٠١٩- ٣

صانع الأقنعة

إسلام محمود حسن

قصص

الطبعة الأولى

٢٠١٠



دار اكتب للنشر والتوزيع

صانع الأقنعة

في ذلك الزمن القديم الحديث، حينما تحولت القلوب إلى أحجار، أحجار لايتفجر منها الماء، ولا ينبت عليها زرع، فأصبحنا أصنام لا تُعبد، استهوانا عقلنا فعبدناه، أثقلنا ضميرنا فنسيناه، أطعنا هوانا وقدّسناه.

عَلِقنا بين بساطة الماضي، اختراعات الحاضر، وتنبُّئات المستقبل، فشلنا في حاضرنا فأصبحنا نعشق أساطير الماضي، وارتحلنا بعقولنا إلى من سبقونا لنعيش في زمنهم، لكننا استعنّا بكل ما هو حديث، نحاول أن نجمع بين قدم الزمان وحداثته في آنٍ واحد.

وقفت ذات صباح، أنظر في مرآتي المسحورة، أختال بعقلي، أتطلع إلى ملامحي التي لم أعد أعرفها، فلقد غيرت هذا الوجه آلاف المرات، لأتماشى مع من حولي، تناسيت نصيحة أمي: "لا تُضيعَ وجهك يا بني، إن ضاع وجهك ستضيع إلى

الأبد".. لم أفهم ذلك الكلام آنذاك، لكنني فهمته الآن، بعد أن ضاع وجهي حقًّا.

تبدأ قصتي مع أول حروف نطقها لساني، حروف مبعثرة مبهمة، لم تُزِد الكون معنًى، بل زادته حيرة وضياعًا.. فلقد استغرقني الكلام سنين كثيرة، فلم أتكلم إلا في السادسة من عمري، لكنني لم أنطق الحكمة، بل نطقت العبث، فأولى كلماتي هي "لا"، بدأت كلامي بالرفض، لكنني لا أعلم هل سأنهيه باليقين؟!.. لم أكن محبوبًا من أحد.. إلا أمي، فالجميع ينفر مني، فقد قال لي أحدهم ذات مرة: أسوأ ما فيك أنك تعلم ما في عقولنا، ما يدور في داخلنا، تجردنا بعينيك، تغوص في أغوارنا، فلا تنطلي عليك أقنعتنا.

تعلمت الوحدة وأصولها، صاحبتها سنين، وعاديتها سنين، أبكتني كثيرًا، لكنها علمتني حقًّا ما معنى الدموع.

"حينما تخطئ، ابكِ كثيراً، ابكِ ندمًا، هكذا ستطهِّرك دموعك من ذنبك".. كلمات حفرتها أمي في قلبي، حتى لا أتوه عن الدرب، فالدرب طويلٌ طويل.

بعد أن أتممت دراستي فشلت وحدتي في أن تكون صاحبتي الوحيدة، فقد استطاعت أن توفّر لي من أتحدث معه، أصارحه بكل ما أملك، أعري نفسي الفانية أمامه، لكنها لم تستطع أن توفر لي سبل الحياة.

بحثت عن عمل كثيرًا، أعاقني صدقي عن التقدم في أية وظيفة، بل تسبب في طردي دائمًا.

ناداني هاتف لم أسمعه من قبل، هاتف من داخلي، شيطان طالما عذّبَتْه دموعي، ناداني بفحيح ثعبان قائلًا: لا بد لك من قناع.

ازدادت آلام الجوع، العوز، غلبتني حاجتي، أبت نفسي الاستجداء، تناسيت نصيحة أمي، ذهبت إلى صانع الأقنعة.

****



صانع الأقنعة

ولد صغير، وُجِدَ ملقًى على جانب الطريق، يصرخ من شدة الجوع، كل من يقترب منه يتركه، ينفر من شدة قبحه، كل من ينظر إليه يكرهه في البداية، ثم يخشاه بعد ذلك، لم يأخذه أحد إلا امرأة عجوز، ذهب ماء عيناها منذ سنين، ربته حتى أشتد عوده وصار ابنًا لها.

مع مرور الأيام ازدادت قوته، كرهه الجميع إلا اثنتان.. المرأة العجوز، وفتاة وحيدة استطاعت أن تنظر إلى وجهه دون أن تنفر منه، رأت الصدق في عينيه، علمت أن وراء هذا الوجه صفاء قلب، أحب الفتاة حتى البكاء، فحبُّها علمه معنًى جديدًا لم يعرفه من قبل، تزوَّجها في صباح أحد الأيام، وما إن علمت القرية بذلك، حتى تجمَّعوا، تصايحوا: ما العمل؟

ستكون له ذرية تشبهه، سيختلط نسب القرية بهذا الوحش، تجمَّعوا عليه، كان قويًّا.. لكن كثرتهم غلبته، سجنوه، عذبوه، ذات مساء وهو في ظلمات سجنه، وظلمات ليل طويل، جاءته

العجوز في منامه، لقد قتلوا زوجتك، فأذهب لثأرك، استيقظ مفزوعًا صارخًا، تبدَّل صفاء عينيه بنيران الغضب، حطَّم باب سجنه، أمسك بأحد الحراس متسائلًا: أين زوجتي؟

لكنه لم يجد الرد، لم تخدعه العجوز، قتلوا زوجته حقًّا.

توقَّف قلبه عن الخفقان، أصبحت أنفاسه باردة، تلاشت لمعة الحياة من عينيه، قتل الحراس، هاجم القرية بغضب جامح، أباد الجميع، حرق القرية، أنهى حياتها في سواد الليل.

هام على وجهه في الأرض سنين، وجد نهرًا مسحورًا، سبح في مائه حتى حدود الغابة المسحورة، أمسك بقطعة خشب، شكَّلها، وضعها على وجهه، تغيَّرت ملامح وجهه، أصبح يشبه البشر، لم يدرِ أحد أنه يلبس قناعًا، هكذا أصبح إنسانًا جديدًا، يصنع الأقنعة من خشب مسحور، أقنعة تغيِّر البشر.

لم يدرِ أحد كم عمره، فلقد تعود على تغيير أقنعته دائمًا فكلما قَدِم قناعه استبدله بواحد أكثر شبابًا، أصبح غنيًّا يملك القصور والكنوز، لكنه فقد صفاء قلبه للأبد.

القناع الأول

انتظرت أيامًا طويلة لمقابلة صانع الأقنعة، فالجميع يريد أقنعة كثيرة، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يتعامل مع الخشب المسحور، جاء دوري أخيرًا، أدخلني الخادم غرفةً كبيرة، جدرانها مغطاة بخشب مختلف ألوانه، يكسو الخشب نباتات غريبة، في أعلى الغرفة قبة زجاجية تجمع أشعة الشمس وتعكسها على صورة فتاة حزينة تجمعت الدموع في عينيها دون انسكاب، تنظر نظرة زائغة كأنها تتطلع إلى المجهول.

جلست أمام صانع الأقنعة، محاولًا أن أخترق قناعه لأعلم ماذا يوجد أسفل هذا القناع، باءت كل محاولاتي بالفشل، نظر إلي ضاحكًا، تناول قناعًا غريب الشكل، أعطاني القناع، سرد لي حكايتي كلها دون أخطاء، لم يأخذ مني نقودًا مقابل القناع.

نظرت إلى قناعي الجديد فهو يحتوي على: "كثير من النفاق، التملق، الحسد، وأنانية منقطعة النظير".

أوهمت نفسي أنني سأضع القناع في العمل فقط، وأنه لن يغير مني شيئًا، لكن كل هذا تبدد عندما ارتديت أول أقنعتي، التحقت بالعمل في إحدى الشركات الكبرى، بدأت في جناية الكثير من الأموال، وصلت إلى منصب رفيع، فجأة حدث ما لم أتوقع، فقدت منصبي أمام شاب جاء العمل حديثًا، نظرت في عينيه لأرى قناعه، لكن ما أفزعني أنني رأيته دون قناع، علمت أن أي قناع أضعه لن يستطيع أن يتغلب على هذا الشخص، كرهت قناعي، ذهبت إلى منزلي، نظرت في مرآتي، خلعت قناعي، صرخت من الرعب، وجهي مشوَّه، لقد شوَّهه القناع، حطمت القناع من شدة غضبي، لعنت صانع الأقنعة، يجب أن أعالج وجهي مما لحق به من تشوهات، هي الوحيدة القادرة على معالجتي.

******

هي

سمُّوها حورية البحر لجمالها، وزرقة عيناها، وعشقها للبحر، قالوا إنها تعلمت أسرار البحر من حورية حقيقية كانت تسكن البحر، علّمتها كيف تداوي جميع الأمراض بأعشاب البحر، داوت الجميع بدون مقابل.

ذهبت إليها لتعالجني، لم تغيّرها السنون، فاعتزالها الأرض وسكنها الجزيرة ساعدها على العيش في صحة جيدة، قالت لي أن علاجي سيستغرق وقتًا طويلًا، في أثناء علاجي تعلّمتُ الصيد، عملت لدى إحدى البحّارة على مركبه الكبير.

بينما أنا جالس على شاطئ البحر، شعرت بخفقان في قلبي، ألم يعتصره، صرخة تزلزل أعماقي، يتبدد صداها في طيات نفسي، توقفت عن التنفس، عن الحركة، كل ما أراه حولي ظلام، توقفت الأصوات من حولي، إلا من همس يتردد في أذني، ضوء يبدو خافتًا يظهر من بعيد، اقتربت من الضوء، إذ به وجه فتاة تحمل ملامح ملائكية، مع أنني لم أرَ الملائكة من

قبل، ازداد الهمس ليصبح صوتًا يتردد في عقلي: استيقظ.. فتحت عيني فجأة لأجد نفسي ملقًى على شاطئ البحر، يتجمع حولي عدد قليل من الناس، ما أدهشني هو رؤيتي للفتاة بين الناس، نظرت في وجه الفتاة، إنها ....، تعجز كلماتي عن الوصف، يعجز قلمي عن الكتابة، كل ما أقوله سيكون محاولة لنقل صورة لها.

*****

الفتاة

طفلة صغيرة تحبو بسعادة وسط الحقول الخضراء، نشأت وحيدة في بيت صغير، أبوها مزارع بسيط، أمها تساعده في أعماله، ربط بين الأب والأم قصة حب جميلة تغلغلت في قلب الفتاة فعلّمتها الحب والحنان منذ نعومة أظافرها، كبرت الفتاة، ازداد جمالها، حملت ملامحها نوعًا خاصًّا من الجمال استأثرت به دون البشر، قد يكون السبب تسامحها، عطفها على الضعفاء، طيبتها، رقتها، صبرها، أو يكون السبب هبة من الخالق لا يعلمه أحد غيره.

عاشت الفتاة فترة سعادة إلى أن جاء شتاء قارس امتد طويلًا، دمر محصول الأب مما دفعه إلى الاستدانة، عجز عن السداد، باع أرضه، اضطر أن يعمل أجيرًا لدى الناس، لم يتحمل قلبه الأمر، شعر بدنو الأجل، يعلم أنه إن مات فستموت زوجته بعده بقليل؛ فقد جمع بين قلبيهما ميثاق غليظ، فكل قلب يكمل الآخر، ولن يُطيق العيش بمفرده.

تكلم مع زوجته، فهو يخشى على ابنته بعد وفاتهما، فكرا كثيرًا ماذا يفعلان؟استقرا على أن حورية البحر هي الوحيدة التي ستصونها لما لهم بها من صداقة وود، ودعا ابنتهما الوحيدة، صليا ركعتين، ماتا في هدوء وسكينة..عاشت الفتاة منذ ذلك الحين لدى حورية البحر.

*****

تعلّقت بالفتاة منذ أن رأيتها، في يوم من الأيام واجهنا عاصفة قوية، حبستنا في البحر يومين، قلق أهل الجزيرة على ذويهم، أعلم أنني لن يقلق عليَّ أحد، وعند وصولنا للشاطئ وجدت الجميع ينتظر، ووجدت الفتاة تنظر لي على استحياء، تطمئن على وجودي بين الناجين من العاصفة، حياؤها منعها من التحدث مع غريب، لذلك قررت ألا أكون غريبًا عنها، تقدَّمت لخطبتها من حورية البحر، وبعد أشهر قليلة تم الزواج في احتفال كبير ضم أهل الجزيرة.

تحولت حياتي إلى سعادة حقيقية مع ملاكي "زوجتي"، ما أقلقني حقًّا هو تلك الآلام التي تنتابها في بعض الأوقات، حاولت حورية البحر معالجتها لكنها باءت بالفشل.

تملكني الألم والإحساس بالعجز لعدم قدرتي على مساعدة ملاكي، لم أجد بدًّا من الذهاب إلى صانع الأقنعة، لعلي أجد عنده نباتًا سحريًّا، يقضي على عِلّتها أو حتى يخفف تلك الآلام.

استقبلني صانع الأقنعة بترحاب شديد، قال لي إنه يستطيع مساعدتي، لكن بشرط واحد، أن أُحضر له خشبًا من نوع خاص، يوجد في الغابة المسحورة.

تساءلت: لماذا أنا؟

أجابني بأني الوحيد القادر على فعل ذلك؛ فأنا الوحيد الذي ارتديت أحد أقنعته واستغنيت عنه دون اللجوء إلى قناع آخر.

رضخت لرغبة صانع الأقنعة، أخذت منه خريطة لموقع الغابة المسحورة، ووصفًا دقيقًا للشجرة التي يريد منها هذا الخشب.

*****

الغابة المسحورة

في البداية بدت لي الغابة كأية غابة عادية، لكن شعرت أن هناك من يراقبني، أسمع همهمة للورود، أشعر بوخز في صدري، ضميري يحدثني: "ستساعد صانع الأقنعة على صنع قناع جديد، ستساعد على زيادة الكذب والخداع في الحياة".

ماذا أفعل أيها الضمير؟ أأترك زوجتي مريضة تتألم؟!!

تابعت طريقي متناسيًا ضميري الذي ظل يثرثر داخلي، حتى وصلت إلى الشجرة المنشودة، استأذنتُها في أخذ قطعة خشب كما قال لي صانع الأقنعة: "في الغابة المسحورة لا شيء يُؤخذ غصبًا".

ردَّت عليَّ الشجرة: من أنت؟

أخبرت الشجرة من أنا وماذا أريد، لكنَّها رفضت، قالت لي: لست المنشود لدي، لن أعطيك شيئًا.

غضبت غضبًا شديدًا لرفضها، صرخت: لا أريد خشبك لي، لا أريد كذب الأقنعة، أو خداع الناس، كل ما أريده هو علاج لزوجتي.

الشجرة: من أنت؟

من أنا؟ من أنا؟ حقًا من أنا؟

أنا عبد خرجت من ظلمة بطن أمي إلى ظلمة الدنيا.

عصيت فوقعت في ظلمة الذنب.

جحدت فغرقت في ظلمة الجهل.

طريقي مشوب بظلمات كثيرة، ينيره أمل ورجاء.

أمل برحمة، ورجاء بمغفرته.

يغلبني شيطاني آلاف المرات، أنساق إلى هوى نفسي الأمَّارة بالسوء.

أذنب، أخطئ، أهوى، أتعثر في الشبهات.

أندم، أبكي، أدعو، أرجو رحمة رب العباد.

أنا إنـــســـــان.

لم تقل لي الشجرة شيئًا، لكني وجدت فرعًا من الشجرة يسقط على الأرض، أخذته وذهبت به إلى صانع الأقنعة.

*****

بدت سعادة غامرة على وجه صانع الأقنعة صاح فرحًا: أخيرًا، انتظرني لترى آخر أقنعتي.

- لكني أريد الدواء لزوجتي.

غاب وقتًا طويلًا في غرفته الخاصة، ثم خرج ومعه قناع جديد، أعطاني القناع لأراه، أمسكت القناع بيدي، بعث في القناع رهبة، سرت في جسدي قشعريرة باردة، نظرت للقناع جيدًا أرى فيه بريقًا غريبًا، قاطعني صانع الأقنعة قائلًا: إنه غايتي الأخيرة، لقد بحثت عن غايتي في كل قناع صنعته، منحت العالم كذبًا وخداعًا بأقنعتي، لكن هذا القناع مختلف، فهو من شجرة الحقيقة، ما إن أضع هذا القناع على وجهي، سينتهي مفعول كل الأقنعة التي صنعتُها من قبل، سأجد الحقيقة، وسأجرِّد العالم من أقنعتي الكاذبة.

أعطاني صانع الأقنعة الدواء، ودَّعني، ووضع القناع على وجهه، اختفى.

*****

انتهت أسطورة صانع الأقنعة، ومع نهايته انتهت كل الأقنعة التي صنعها، احتار البشر مدة طويلة كيف يعيشون دون أقنعة،

قليل منهم رضي العيش بوجهه الحقيقي، أكثرهم صنعوا أقنعة لأنفسهم، أقنعة من خشب غير مسحور، حتى أنا صنعت أقنعة استخدمتها في بعض الأوقات، لكني نبذتُها في أوقات أكثر.

حاولت مرارًا أن أذهب إلى شجرة الحقيقة، أعرف منها حقيقة كل شيء، لكني ضعت في الطرقات.

ما زلت أبحث، قد أجد الحقيقة يومًا، أو أجد صانع الأقنعة.

هريدي السابع ملك الصعيد

في زمن الأساطير، حيث سيطرت على البشر وحوش رهيبة.

في زمن الغولة، التنين الصيني، الملك العقرب، ومصاصي الدماء.

في زمن النازغول "حيوان خرافي ظهر في فيلم ملك الخواتم".

في تلك الآونة الغريبة، قبل فجر التاريخ بحوالي ٣ ساعات، ظهر هريدي السابع لُقّب بالسابع لأنه سابع طفل في العائلة المكونة من ١٥ طفل.

لم يكن هريدي بالطفل العادي؛ فقد لاحظ أبواه ذكاءه الحاد، وقوته في مراحل الطفولة المبكرة.

احتل هريدي الصدارة في ألعاب التحطيب، المصارعة، وكافّة ألعاب الذكاء من سيجة الصعايدة، الدومنو، والطاولة.

جاءت اللحظة المناسبة ليثبت هريدي لقريته أنه رجل المهام الصعبة.

عندما هاجم القرية وحش أطلقوا عليه السلعوة "أول ظهور للسلعوة في مصر"، لكن الذي جعل الأمور أصعب بكثير هو اكتشافهم أن الوحش لم يكن السلعوة بل كان السلعو "ذكر السلعوة".

هاجم السلعو المواشي، قطعان الأغنام، الدجاج، الأولاد الصغيرة، كبار السن، الحماوات الشريرة، وعاث في الأرض فسادًا.

لذلك أجمعت القرية على وضع حد لهذا السلعو، لكن لم يجرؤ أحد من رجال القرية على مواجهة هذا الوحش إلا هريدي السابع..وهنا يرصد التاريخ دور المرأة الصعيدية الرائدة في مواجهة السلعو، حيث تبرَّعت أم إسماعيل بمرواة أبو إسماعيل، تلك المرواة التي يقال إنها من صنع الجن، لكننا لم نتأكد من هذا الكلام.

أخذ هريدي المرواة وخرج إلى قارعة الطريق، ليجد السلعو يجلس متفاخرًا بقوته، نظر السلعو نظرة نارية صوب هريدي،

فتفادى هريدي تلك النظرة، رفع هريدي هرواته عاليًا وانطلق هاجمًا بأقصى قوته على السلعو، وقفز السلعو قفزة رهيبة، والتحم الاثنان في معركة دامية فظيعة، دامت أكثر من ٣ ساعات، كان النصر فيها حليف هريدي.

بعد فوز هريدي الساحق على السلعو، ازدادت مكانته في القرية، وأصبح بطلها الأول بلا منازع.. بدأت القرية في التكلم عن قوة هريدي ومهارته وازدادت شعبيته، مما أثار فزع العمدة خوفًا من أن ينازعه هريدي في منصبه، لذلك قرر أن يدبر لهريدي مكيدة ليتخلص منه؛ فأعلن العمدة عن مسابقة، وطاف منادى القرية أن العمدة يعلن أنه من يأتِ برِجْل أبو رِجْل مسلوخة إلى العمدة، بشرط أن تكون هذه الرِّجل هي الرِّجل المسلوخة، سوف يزوجه العمدة ابنته هبة، ويجعله نائبه في العُموديَّة.. ظن جميع أهالي القرية أن هريدي أول من سيسعى لهذه المسابقة، لكن ما أثار دهشة الجميع أن هريدي لم يشترك في هذه المسابقة.

ترددت شائعات أن هريدي بيكلم فتاة أجنبية على الإنترنت.

كما قال مصدر آخر أن الفتاة أرسلت له صورها مما جعل هريدي ينصرف عن المسابقة، وعن الزواج ببهية.

فشلت كل مساعي العمدة في إبعاد هريدي عن القرية، لكن القدر هو الذي حمل هريدي على الخروج من قريته، والسير في طريق المجهول.

فبينما يجلس هريدي مع ندمائه؛ إذ برسالة قصيرة تأتي على هاتفه المحمول، هذه الرسالة لم تكن كأي رسالة، لكنها كانت من حبيبته نص الرسالة: "حبيبي هريدي التراغيل تهاجم مدينتنا بقوة، الحقني"..

ملحوظة: التراغيل جمع نازغول، قولتلكم عليه في أول القصة.

هب هريدي لنجدة حبيبته، فأخذ سيفه، وركب حصانه، وقطع الصحاري، الجبال، التلال، البحار، والمحيطات، إلى أن وصل إلى أرض حبيبته.

دخل هريدي المدينة ليجدها محاطة بالدمار والخراب الفظيع، نظر هريدي إلى السماء ليجدها تعج بالتراغيل، أخرج هاتفه المحمول واتصل بحبيبته.

هريدي: ألو.. أنا عند البنزينة اللي في أول المدينة، بيتك فين بالظبط؟

حبيبته: آخر الشارع على إيدك اليمين، حتلاقي نازغول كبير واقف على سطح البيت.

هريدي: أوكيه.. أنا جاي حالًا.

ذهب هريدي لملاقاة حبيبته، وبدأ في حربه العاتية، القوية، الفظيعة، الرهيبة، والمدمرة على التراغيل.

دامت الحرب عشرات السنين، لكن بالصبر والجلد استطاع هريدي السابع أن يهزم التراغيل.

بعد انتصار هريدي قرر الزواج بحبيبته، والعودة بها إلى قريته.

استقبل الصعيد هريدي استقبال الأبطال، وبعد عدة أيام من وصول هريدي، أعلن الصعيد انفصاله عن الدولة، وتتويج هريدي ملكًا للصعيد.

ليبدأ الصعيد في أولى خطوات النهضة تحت قيادة هريدي السابع ملك الصعيد.

هريدي السابع والتنانين المتوحشة

استيقظ هريدي على بكاء زوجته؛ فسألها عن سبب بكائها قائلًا: ما لك يا دودي؟

زوجته: مش ممكن يا هريدي أنا زهقانة أوي.. الحياة صعبة هنا في الصعيد، نفسي أعمل شوبنج، واشترى اللى عيزاه.

هريدي: طب ما تروحي عند أم إسماعيل عندها طقم باجي صعقة جديد، وجابت برفان الخنفري الحريمي.

زوجته: إنت مش فاهمني الحياة هنا مش زي أوربا، الحشرات هنا أكبر من العصافير في أوربا.

هريدي: لو المشكلة في الحشرات حجيب القاتل المرعب، إعلانه بيجي في التلفزيون "يقتل، ينتشر، يتسرب، يتبعجر، يدمر، يشل، ويقطع الحشرات الطائرة والزاحفة والنائمة".

زوجته: هريدي أنا عايزة أسافر أوربا.. تعال معايا.

لم يستطع هريدي مغادرة موطنه الأصلي.. الصعيد، لذلك كان الانفصال هو الحل الأكيد، خيم على هريدي فترة من الحزن إلى أن جاءه رسول ملكة الشمال، فدخل على هريدي وسلم عليه، وقرأ الرسالة:

"من مزنة ملكة الشمال، إلى هريدي ملك الصعيد، بعد التحية: أنا عارفة إنك ملك جامد، وإنك حاربت السلعو، والتراغيل، وكمان طردت زيكو الفضائي من الأرض، الحقني يا هريدي، الشمال بتهاجمه تنانين متوحشة من ماركة تنين الغاب طويل الناب".. عندما سمع هريدي الرسالة، أنشد أبيات شعرية قائلًا:

أنا هريدي ملك الصعيد

قوتي أشد من الحديد

لقد استغاث بنا الشمال

فلنُعطيَنَّه النصر الأكيد

استعد هريدي وسار بجيوشه الجرارة صوب الشمال، وترك

الجيوش على حدود الشمال تحت قيادة سعفان القائد الأعلى لجيوش الصعيد، ثم ذهب لمقابلة الملكة مزنة، فما إن وقع بصره عليها، اجتاح قلبه مشاعر عاتية، ودق قلبه بعنف، فأخرج لها وردة حمراء وأتبع الوردة الحمراء بتسبيلة من عينيه وتنحنح قائلًا: ازيك يا مزنة.

فاحمر وجه مزنة خجلًا، وردَّت قائلة: الحمد لله يا هريدي، شوفت التنانين دمروا المدينة.. كُبَّة عليهم كلهم.

بعد هذا اللقاء قرر هريدي الهجوم الساحق على التنانين ليستأصل شأفتهم، وبدأت المعركة، وهجمت التنانين هجومًا ساحقًا، وقتلت العديد من الرجال مما جعل هريدي ينسحب بالجيش إلى منطقة الجبال، وعقد هريدي مؤتمرًا عسكريًّا مغلق مع قائد الكوماندوز "صميدة"، والقائد العام لجيوش الصعيد "سعفان"، استمر الاجتماع عدة أيام حتى تم وضع الخطة المناسبة.. وكانت الخطة تعتمد على شل قدرة التنانين عن الطيران، وذلك بإغرائهم بالأكل الكثير وتخديرهم، حيث وضع هريدي كمية كبيرة من المنوم في النقانق، وبدأ بتوزيع النقانق على مختلف أرجاء الشمال.

"ملحوظة: النقانق من أشهى المأكولات لدى التنانين، وخاصة إن كانت بالكاتشب".

ما إن أكلت التنانين النقانق حتى أصيبت بعدم القدرة على الطيران، فهجم هريدي بجيشه هجمة رجل واحد حتى أبادهم عن بكرة أبيهم.

احتفل الشمال بهذا النصر، كما قررت مملكة الشمال إعطاء هريدي وسام الشجاعة من الدرجة الأولى.

وحانت لحظة الوداع، فرأى هريدي في عيون مزنة دموعًا، فسألها قائلًا: ما لك؟

مزنة: مفيش حاجة أصلي كنت باكل سندوتش كبده من عند أبو كمال بس كان حامي شوية، فخلاني أدمع.

هريدي: مزنة.. أنا معجب بيكي بس أنا لسه منفصل عن مراتي في أول القصة، ولو خطبتك دلوقتي الناس حتقول عليا معنديش دم، ممكن نتكلم شوية على النت؟أنا إيميلي كتبتهولك في الورقة دي.

مزنة: بس نتكلم على الياهو، أصل الهوت ميل عندي مش شغّال.

هريدي: أوكيه.. لما أرنلك رنّتين معناها إني أون لاين.

ودع هريدي مزنة واتّجه بجيوشه إلى الصعيد، وتوالت الأيام والأسابيع والشهور والسنين، إلى أن وصل هريدي ومزنة إلى الاتفاق على الزواج، وضم كل من مملكة الصعيد مع ملكة الشمال لتتوحد البلاد مرة أخرى، ويعم الخير والسلام.

اللأزمان

هل يتوقف الزمان؟

وإن توقف؛ فمتى يتوقف؟

أم إنه توقَّف نسبي لنا، ولكنه يستمر لغيرنا؟

الكثير منا حلم أكثر من مرة بأن يسافر عبر الزمن ليحقق أغراضه، أو يعيش في زمن آخر.

أردت استغلال وقتي في شيء مفيد؛ فالإجازة الماضية مرت دون شيء يُذكر، لذلك سمعت أخيرًا نصيحة أحد أصدقائي بأن أذهب لزيارة دار مسنين.

كانت أول مرة أذهب فيها إلى دار مسنين، ولكن ما أدهشني، بل أفزعني حقًّا؛ هو عدد المسنين المتواجدين في الدار، والأصعب من ذلك أن معظم المسنين لهم أولاد على قيد الحياة، هل حقًّا يوجد سبب في الحياة يستحق أن نترك آباءنا متناسين كل ما فعلوه من أجلنا، كأنه شيء لم يكن، وأننا وُجِدنا من العدم؟!

صدقوني لا أجد كلامًا مناسبًا لأصف حال هؤلاء الأهل، فكل الكتابات التي تصف مآسي الدنيا لا تستطيع أن تصف نظرة واحدة من نظرات الألم التي احتلت وجدانهم وتملكت أرواحهم محطّمة ابتساماتهم، ظهرت في عيونهم لتعلن أن الألم هو السائد.

أرشدتني المشرفة إلى الحديقة الصغيرة؛ لأجد في أحد أركانها عجوزًا أمامه لوحة شطرنج لم تتحرك أيٌّ من قطعها، ينظر إليها كأنها الوجود وكل ما عداها نسيان..

ترددت في الذهاب إليه، شيء ما دفعني، اقتربت منه، ألقيت عليه التحية فرد على التحية، وأشار إليَّ لأجلس أمامه، وبدأ في تحريك قطعة الشطرنج معلنًا بداية الدور في ذلك الركن السحري، كأنه اختزل الدنيا في رقعة تتقاسم ألوانها بين الأبيض والأسود، تتوسط مائدة عاصرت عدة أجيال، وتنقّلت في العديد من البيوت، إلى أن ظهر عليها القِدم فقلّت مكانتها، وضعفت جودتها، وانتهى بها الحال في تلك الدار.. أعجبتني مهارته في اللعب، وازداد تركيزي كي أستطيع أن أصمد أمام هجماته المتكررة، ولكنه فاجأني بكوب من الشاي معلنًا وقت الاستراحة.

انتهى الوقت ولم يكتمل الدور، ولم نتحدث كثيرًا؛ لذلك وعدته بأن نكمل الدور والحديث في الأسبوع القادم.

استيقظت على دقات متتالية على الباب، لم أستطع مواجهة الطرقات؛ لذلك توجهت إلى الباب وفتحته، فإذا بها فتاة في السابعة من عمرها ينساب شعرها الأسود على كتفيها، نظرت إليها.. هل أخطأت في الشقة؟

لكن تبيَّن أن إحدى ألعابها سقطت في شرفة شقتي، فأحضرتها إليها.

بدأ الهاتف يرن ليكمل مسيرة الإزعاج اليومية؛ بداية من الباعة المتجوِّلين، صرخات الأمهات على أولادهم، الأغاني الصاخبة التي تسمعها إحدى جاراتي، والتي تدل قطعًا على حالتها العاطفية، وبما أنها تسمع أغانٍ كئيبة؛ فهذا يدل على أنها تركت طارق وانتهت علاقة الحب التي استمرت ثلاثة أسابيع.

- ألو.. أيوه.. مين معايا؟

- نسيت صوتي؟!

- انتابتني حيرة كبيرة؛ فأنا لا أكلم العديد من الفتيات..

- شكلي صحَّيتك من النوم.

- لأ بس مش فاكر.

- يبقى حتفتكرني المرة الجاية اللي حكلمك فيها.. باي.

- باي.. مين دي؟

لم أستطع التركيز.. فقد كنت محتاجًا لكوب من الشاي، كما أن صوت الفتاة لم يبدُ غريبًا عليَّ.. أشعر أني أعرفها من قبل.

***

ارتديت ملابسي، ذهبت إلى دار المسنين، فاليوم ميعادي مع عم صابر.. (الرجل العجوز).

ألقيت عليه التحية، تعلو شفتيه ابتسامة، واضعًا أمامه لوحة الشطرنج، لم يحرك أيٌّ من قطعها، بدأ اللعب مسرعًا، يريد أن ينهي الدور قبل انتهاء الوقت.

- ممكن نؤجل الدور المرة الجاية.

عم صابر: أنت حتيجي مرة تانية؟

في تلك اللحظة شعرت بكلماته، لم أسمعها فقط؛ فكل حرف منها يدل على مقدار الوحدة التي يعانيها، وتلك السعادة التي بدأت تشق طريقها إلى قلبه مع بداية زيارتي له.

بدأ عم صابر يحكي قصته كأنه في بدايات تعلُّمه الكلام: أنا عندي ولد واحد، بس بعد ما أخد الشهادة حاول يشتغل هنا، المشكلة إن مجال الشغل بتاعه مش مهم في مصر، ولا حتى في الدول العربية، جاني في يوم وقال لي: "أنا مهاجر"، فكَّرته

كلام وقت ضيق، أصل الواحد لما بيكون متضايق بيقول أي حاجة، بس مطلعش كلام، وهاجر كندا، وقال لي: "أول ما الظروف تتحسن حبعتلك آخدك تعيش معايا"، قعدت لوحدي عشر سنين، بس تعبت وملقيتش حد يراعيني، فَبِعْت الشقة وحطّيت الفلوس في البنك، أهو اللي بيطلع منها على المعاش يا دوب يكفّي.. عارف أنا نفسي في إيه قبل ما أموت؟.. نفسي ألاقي الصندوق!

انتهى الوقت، ولأول مرة أراه يقف ليودعني على أمل في لقاء آخر، ناظرًا في عيني طالبًا وعدًا مني بذلك، فوحدة عشر سنوات تكفي أن تجعل نهاية أي لقاء أصعب ما يكون.

***

رجعت إلى منزلي لأجد الفتاة الصغيرة تنتظر أسفل العمارة: أفقدتِ أحد ألعابك؟

الفتاة: لأ.. بس ماما اتأخّرِت وما فيش حد في البيت

– ممكن تطلعي تستني عندي.

تردَّدت الفتاة قليلًا، نظرت إليَّ، فهذه ثاني مرة تتحدث معي فيها..

– تعالي أحسن ما تفضلي في الشارع.

وافقت الفتاة على اقتراحي، دخلت معي المترل، جلست دون حراك..

- بتحبي الكارتون؟

الفتاة بكل هدوء: أيوه.

فتحت التلفزيون على قناة الكارتون، تركت الفتاة، بحثت عن شيء لأقدمه لها؛ فهذه أول مرة أستضيف فتاة في سنها، ذهبت إلى الفتاة لأسألها ماذا تريد، فأجابتني أنها تسمع صوت أخيها، شكرتني الفتاة وصعدت إلى شقتها.

دخلت إلى غرفتي لأرد على الهاتف؛ فإذا بها صاحبة الصوت الرقيق، ولكن هذه المرة أعطتني ميعادًا لكي نتقابل، لا أعلم لماذا وافقت؛ أهو حب استطلاع، أم سعي وراء تجربة لم أعهدها من قبل.. ارتديت ملابسي، نزلت لأقابل أصدقائي، أشعر بشخص يسير ورائي، توقفت عند عدة محلّات، توقّف هذا الشخص، بدأت الجري مسرعًا بأقصى ما أملك من قوة، ولكنه تابعني مسرعًا، اقتربت المسافة بيننا، بدأت أشعر بالتعب، استدرت فجأة لأواجهه ولكنه اختفى.

لم أستطع الذهاب إلى أصدقائي، أشعر بتعب، ذهبت إلى مترلي لأستريح، لا أعلم كم نمتُ؛ فبعد سفر والداي اختلفت

مواعيد نومي، ولكني في هذه المرة نمت يومًا كاملًا، أشعر بآلام تجتاح جسدي، استحممت، حلقت ذقني؛ فاليوم ميعادي مع صاحبة الصوت الرقيق، ارتديت ملابسي، اتجهت حيث مكان لقائنا.

إنها موجودة، ولكنها أجمل مما تصورت، أعلم أنني رسمت لها عدة صور في خيالي، ولكنها أجمل من أن أصفها، اقتربتُ منها، تبسَّمَت لي، ماذا أفعل؟ ماذا أقول؟ بدأت تتوقف معظم عمليات جسمي الحيوية، كل ما أسمعه هو دقات قلبي، وكل ما أراه هو وجهها الجميل، إنها ليست أول مرة أكلم فيها فتاة، ولكنها ليست كأي فتاة، اقتربت منها أكثر، توقفت أمامها مباشرة..

- ازيك.. عاملة إيه؟

الفتاة: الحمد لله

- بجد.. أنت أحلى مما كنت أتصور.

سكتت قليلًا، أزاحت بيدها الرقيقة خصلات شعرها الأسود من على وجهها، نظرت مباشرة إلى عيني، ثم أغمضت عيناها مرتين متتاليتين.

- أنا عارفكِ، إنتِ سارة، إنتِ الوحيدة اللي كنتِ بتعملي كده لما أقولّك كلام حلو، نظرت إليها جيدًا، إنها هي، أكملت كلامي: ممكن أعزمك على حاجة.

***

سارة هي أجمل فتاة عرفتها من قبل، كانت مشتركة في نفس النادي الذي كنت فيه، لم أعلم سر انسجامها معي أو إعجابي بها، ولكنها كانت رفيقتي في كل ألعابي، لم يكن فارق السن كبيرًا؛ لذلك كنّا في منتهى التفاهم في هذه السن الصغير، آخر مرة التقيتُها من حوالي ١٥ سنة؛ أي أنني كنت في الثامنة من عمري، ثم سافرت مع أبويها لتستقر في القاهرة، ولكنها عادت منذ شهر تقريبًا، ورأتني مرة في النادي، وتعرفت عليَّ؛ لذلك بدأت في محادثتي بالتليفون، حيث لم يتغير رقم الهاتف.

لم أشعر بهذه السعادة من قبل، فحينما تتكلم سارة تشعر بأن كل الكون يرفرف من السعادة، وعند سماعها كلمات جميلة تطبق بأجفانها لتحجب هذا السحر المتدفق من عيناها، تذكرنا معًا أجمل لحظاتنا، تكلمنا عن كل شيء.. تجاربنا، دراستنا، حياتنا، لم أشعر بأي حاجز وأنا أتكلم معها، بالطبع اتفقنا على أن نلتقي مرة أخرى في النادي.

لم يكن لدي وقت لأرجع إلى المترل؛ لذلك قررت أن أتجه مباشرةً لرؤية عم صابر، ذهبت إلى مكاننا المعهود، ولكني لم أجده، سألت المشرفة فدلتني على حجرته.

وجدته داخل الغرفة ومعه عدة أوراق، أشار إليّ بأن أغلق الباب ورائي، اقترب مني قائلًا: أنا دلوقتي ححكيلك عن أهم حاجة في حياتي، عن الصندوق.

تأكّد عم صابر من إغلاق باب الغرفة للمرة الرابعة، ثم اقترب قائلًا: أنا خريج كلية العلوم قسم فيزياء، الفيزياء هي عشقي، أنا عملت بحث مهم جدًّا، بعد فترة اكتشفت إن الإنسان ممكن يسير بسرعة مقاربة لسرعة الضوء، بس أقل شوية، عارف لو ده حصل؛ ممكن الزمن يرجع للماضي، وفعلًا تكون في اللازمان، يعني لو قدرت توصل للسرعة دي ممكن تعمل أي حاجة في زمن قليل جدًّا، أهم حاجة أنك تفضل محافظ على سرعتك.

بدأت علامات الدهشة والاستغراب تظهر على وجهي، فسكت عم صابر قليلًا ثم أكمل حديثه: أنا حديلك مثال: أنت بتروح للقاهرة في حوالي ٣ ساعات، بس لو استخدمت السرعة اللي بقولك عليها حتروح في ٥ دقايق.

لأن السرعة= المسافة/ الزمن، يعني لو ثبّتنا المسافة، وزوّدنا السرعة، يبقى لازم الزمن يقل.

المشكلة إن كل أوراقي اللي فيها المعادلات دي في الصندوق، وأنا مش فاكر فين الصندوق، بس لازم أفتكر، وأنت حتساعدني.

أومأت له بالإيجاب، ولكني ذهبت إلى منزلي وأنا لا أعلم إن كان صادقًا فيما قال أم إنها مجرد أوهام رجل تعدّى عمره السبعين، يبحث عن أمل يجعل لحياته قيمة بعد أن تخلّى عنه الجميع.

***

ممكن أستنّى عندك لغاية ما ماما تيجي؟! أصلي بخاف أفضل لوحدي.. وافقت على الفور، فالوحدة حقًا موحِشة، كما أن الفتاة هادئة ولن تسبب لي المتاعب، سألت الفتاة إن كانت استأذنت والدها؟

الفتاة: بابا مات وأنا صغيرة، مش بفتكره خالص، بس قولت لماما، هي وافقت علشان هي بتكون طول فترة الصبح في الشغل، وأخويا سافر عند خالي.

- اسمِك إيه؟

الفتاة: مَلَك، أنا في سنة أولى، ونجحت وجبت درجات حلوة.

بدأ نوع جديد من الصداقة يتكون بيني وبين ملك، التي أصبحت تقضي معظم فترة الصباح معي حتى قدوم والدتها من العمل.

أعلم أن الأطفال في هذا السن متعبين، والتواصل معهم ليس باليسير، ولكن ملك كانت مختلفة تمامًا، لم أجد صعوبة في التعامل معها، كما علَّمتني العديد من الألعاب الجميلة.

ملك: إيه الشياكة دي.. ميعاد مهم ولا إيه؟

تبسَّمت رغمًا عني: رايح النادي، المرة الجاية استأذني مامتك وآخدك معايا.

ملك: لأ.. أنا بحب أقعد في البيت.

- حد يحب البيت؟ أنا لازم أنزل دلوقتي، بعدين نتفاهم.

***

بحثت في عدة محلات عن هدية لسارة، حتى وجدت دبدوبًا تبدو على ملامحه الذكاء، اتجهت إلى النادي، انتظرتها عدة دقائق، ماذا سأقول لها؟ أشعر بسعادة كبيرة لدخولها إلى عالمي بعد هذه المدة؛ حيث كنت أشعر بوحدة قاتلة، أجمل ما

فيها أني أشعر بأنها حقيقية، أستطيع أن أتكلم معها في كل شيء، أشعر براحة كبيرة معها.

سارة: ازيك.. سرحان في إيه؟

-حتصدقيني لو قولتلك فيكي.

سارة: أكيد، لأنك متقدرش تفكر في حد تاني.

- إيه الثقة دي؟

سارة: أصلي حاسَّة إننا زي ما كنَّا زمان، وفرحانة لأني معاك.

-ده كلام كبير، مقدرش عليه، بجد كده تستحقي الدبدوب.

لا أعلم كم أو كيف أو ماذا أو.........

كل الذي أعلمه أن عقلي، قلبي، روحي، بل وجداني كله متيم وفي حالة حب جديدة، بدأت بعيونها لتتوقف أمامهم طويلًا، مهما طال الزمان فلن أسأم من ذلك البريق الدافئ الذي يغمرني كلما نظرت إليها، كل ما أتمناه في هذه اللحظة أن أذوب في عينيها لأكون جزء من ذلك النقاء.

انتهى الوقت سريعًا، ذهبت إلى منزلي، صوتها يتردد في أذني، ضحكتها تعلو فوق أي شيء، تخترق طيات نفسي،

تتخلل قلبي، تذكرني بماضٍ جميل، وحاضر مشرق، ومستقبل تغرد فيه طيور الأمل.

***

"أنا افتكرت مكان الصندوق".. صيحة عم صابر التي دوت عاليًا، ولكنه تذكر أن كل هذا يجب أن يكون في السر خوفًا من أن يذاع خبر الصندوق والبحث المهم؛ حيث أقسمت له أنني لن أخبر أي شخص بهذا السر حتى يأذن لي.

بدأ عم صابر في وصف مكان الصندوق، حيث خبَّأه في منزله القديم، قبل أن يسافر ابنه بوقت قصير.

لم يستطيع عم صابر كتم فرحته مما دفعني لأن أبدأ بحثي عن الصندوق الذي أنار حياته، حيث دبَّت في جسده الحياة، بدأ يكتب العديد من المعادلات محاولًا أن ينشِّط عقله الذي كان في حالة خمول بعد سفر ابنه.

لم يعلم عم صابر كيف تذكَّر مكان الصندوق، ولكنه صحا من النوم فتذكَّر مكانه على الفور.

زاد هذا من قلقي، هل حقًا الصندوق حقيقي، أو أنه خدعة تلعبها نفس عم صابر اللاواعية لتعود به إلى الحياة التي اعتزلها منذ زمن طويل؟!

لأبدد ما بي من حيرة؛ اتجهت إلى العنوان مباشرة، ولكني لم أجد المبنى الذي وصفه، بل لم أجد الشارع، سألت الكثير من الناس حيث انتهى بي المطـاف إلى رجـل عاصر المنطقة منذ أكثر من ٧٠ سنة، ولكنه أكد لي أن العنوان ليس له أي وجود.

الآن تأكَّدت شكوكي بأن عم صابر واهم فيما يقول، كل ما أخشاه عليه هو المواجهة التي قد تسبب له مشكلة نفسية.

لن أواجهه اليوم، يجب أن أفكر جيدًا، لذلك توجَّهت إلى المترل مباشرةً.

***

دقات الباب تعلن عن قدوم ملك، التي أضافت إلى حياتي سعادة من نوع آخر.

- صباح الفل يا قمر، فطرتي ولا أعمل حسابك؟

ملك: فطرت الحمد لله.

- ما لك.. شكلك زعلان؟

ملك: أصلي مش حقدر أشوفك تاني.

- ليه، حتسيبوا البيت؟

ولكنها سكتت، نظرت إلى التلفزيون دون تعليق، ترقرقت في عيونها الدموع.

اقتربت منها، محاولًا معرفة ما يجري، دون جدوى.

- خلاص حخدك معايا النادي، ذهبت لأعد كوبًا من الشاي، ولكني سمعت صوتها يعلو بالبكاء وهي تقول: مش حينفع.. أنت مش فاهم.. أنا وهـــ...

خرجت مسرعًا من المطبخ، لكنها اختفت، الباب مغلق، ملك أنت فين؟

بحثت عنها في أنحاء المترل ولكني لم أجدها، أتكون في الشرفة، تسلقت السور وسقطت؟ خرجت مسرعًا ولكنها لم تكن هناك، الحمد لله.

ولكن أين هي؟ صعدت مسرعًا إلى شقتها، ملك أنت فين؟ اقتربت من الباب، سمعت إحدى الجارات صوتي فخرجت مسرعة.

الجارة: أنت عايز مين؟

- ملك، البنت الصغيرة.

الجارة: مفيش حد ساكن في العمارة اسمه ملك، الشقة دي فاضيه بجي سنة.

لم أستطع التفكير، هل هي من نسيج خيالي؟

أم هي شبح ضاق بالوحدة فقرر الظهور لي في شكل بنت صغيرة؟

قفزت في ذهني فكرة واحدة.. عم صابر وصندوقه، أهو حقيقة؟ذهبت مسرعًا إلى دار المسنين، لم أجد أحدًا، ذهبت إلى ذلك الركن الذي اعتدنا أن نجلس عليه معًا، ولكني وجدت فيه لوحة الشطرنج، نظرت إليها جيدًا، فهي ملكي، فأنا من أحضرت الشطرنج إلى هنا.

في تلك اللحظة توقف عقلي عن التفكير، خرجت مسرعًا من ذلك المنزل المهجور، بدأت السير في اتجاه منزلي، ولكني رأيته يقترب مني مرة أخرى، إنه هو الذي طاردني من قبل، أهو وهم؟ أم حقيقي؟ جريت بأقصى سرعة، لا أعلم.. أأخشاه لأنه حقيقي؟ أم إنه وهم ومن صنع خيالي؟! مما يدل على أني ضعت وأن عقلي بدأ في الهذيان.

اقترب مني.. أمسكني بقوة.. استدرت لأواجهه: أنت عايز مني إيه؟

لم أستطع أن أكمل كلامي؛ فهو صديقي، نعم أنه إنسان حقيقي، مما يدل على أن عقلي ما زال، لا أعلم!

صديقي: ما لك؟! دي تاني مرة أول ما تشوفني تجري.

- مش عارف أي حاجة.

أخذني صديقي إلى خاله؛ حيث يعمل طبيبًا نفسيًّا، بدأت أحكي له كل ما رأيت، وكيف اختفت هذه الشخصيات من عالمي فجأة.

أخبرني الطبيب بأن هذه الحالة هي بدايات لِفصامٍ في الشخصية، ولكن عقلي توقَّف فجأة عن هذه التخيُّلات؛ مما يؤكد أنني سأتماثل للشفاء إن شاء الله قريبًا.

المشكلة الكبرى التي تعتصر قلبي ألَّا أن تكون سارة هي أيضًا وهمًا، بدأت أشعر بآلام تتملكني؛ فخسارة كلًّا من ملك وعم صابر كبيرة ومؤلمة، ولكن خسارة سارة تكون الفاجعة نفسها، بدأت يد حديدية تعتصر قلبي، تمزقه، تسحقه، تفتته لتذروه في مهب الرياح، دون الحبيبة التي أنتظرها من زمن ليس بالقليل، تلك التي ألف حركاتها، سكناتها، فهي حُلمه الذي لم يحلمه؛ لأنه مهما حلم فلن يستطيع عقله أن يحلم بهذا الجمال، الرقة، الطيبة، كل ما تخيله وما لم يتخيله قد تجمع في الفتاة التي ربطته من قبل بها أيام طفولة جميلة، وساعات لا تحتسب من الزمان.

استجمعت قوتي، اتجهت إلى التليفون، بدأت يدي في طلب رقمها، ارتعشت يدي، دقات قلبي تطغى عليَّ، أشعر بأنها تزلزل كل كياني، سرَت في جسدي قشعريرة باردة، بدأت الغرق في بحر الأوهام، لا أستطيع أن أتنفس، بدأت أدرك أنها هي أيضًا وهم، أغلقت سماعة الهاتف، غطيت وجهي بكلتا يدي، أشعر بهول الصدمة، تجاهلت دقات الباب، فكل ما حلمت به بدا في لحظة واحدة هباءً منثورًا.

رن جرس الهاتف...

– إيه القلق ده؟ ما أنت كويس، ده دلع علشان تعرف قيمتك عندنا، أنت غالي جدًّا علينا... كانت هذه كلمات سارة.

في تلك اللحظة توقَّف الزمان، لم أحتَجْ إلى صندوق عم صابر أو معادلاته، لم يعد للسرعة أو المسافة أو الفيزياء حتى أي معنًى.

المعنى الوحيد الذي استطاع أن يسيطر على كل شيء، هو أن سارة حقيقية.

***

فسَّر الطبيب أن حالتي كانت نتيجة الوحدة، والضغوط النفسية، مما جعلني أبدأ بتوهم الأشخاص، ولكن وجود سارة

وهي شخصية حقيقية استطاع أن يصنع توازنًا بطريقة ما، مما جعل عقلي يبدأ في محاولة احتواء الموقف.

استمر علاجي فترة ليست بقصيرة،كما أن رجوع والدي من السفر ساعدني كثيرًا.

أشعر دائمًا أن السبب الرئيسي الذي ساعدني على تخطِّي هذه الأزمة، هو تواجد سارة بجانبي.

مر على هذه الحادثة حوالي ثلاث سنوات، كما استطعت أن أنتهى أخيرًا من التعليم، وبدأت العمل، ولكني تبقَّى لي حلم مهم جدًّا، بل يعدُّ من أهم أحلام حياتي "سارة".

لم أستطع أن أجد الصندوق، وبالتالي لم يتوقف الزمان، ولكني أدركت أننا يمكن أن نوقف الزمان في داخل قلوبنا، ونهزم الكِبَر، فتظل قلوبنا دائمًا عامرة بالسعادة.

بمناسبة الحديث عن السعادة، فأنا اليوم ذاهب إلى والدي سارة لأقوم بخطبتها، لأبدأ أولى خطواتي في إيقاف الزمن.

ما وراء الغيـــوم

دائمًا هناك لحظات، لحظات لا تخضع إلى عقل أو منطق، لكنها تحدث فقط.

حينما تنظر إلى نفسك في المرآة، تشعر بأن هذا الشخص ليس أنت، تتحسس ملامحك، كأن روحك خرجت من هذا الجسد، وبدأت في الحكم عليه بمنظور آخر.

ذلك الصدى المتردد، النابع من صوتك، كأنه صوت آخر جاء من الفضاء، يحمل بين طياته سرًّا من أسرار الغيوم، وما أدراك ماهية الغيوم؟!!!

قيل إنه منذ عصر ليس بقريب أو بعيد، عصر لم ينسب إلى أي زمان، عصر جاء وانتهى كأنه حلم في ليل شديد الظلمة، حيث لم يدركه إلا القليل.

ماذا قيل؟

إنه كانت هناك قطرة ماء صغيرة، تسبح في حرية ونشاط تحت أشعة الشمس الدافئة، تلعب بكل حيوية، لا تخشى أي شيء، كأنها ملكت الحياة، ولكنها فجأة شعرت بحرارة شديدة، أحاطت بمن حولها، بدأت تمتد إليها، أهي النهاية؟

فكرت كثيرًا، ماذا فعلت في حياتها؟ بدأت الحرارة في الارتفاع، لن أجزع الآن، لم أكن قط قطرة ماء شريرة، لم أحمل يومًا ضغينة، قلبي امتلأ بالحب، هكذا بدأت تطمئن نفسها، بدأت الحرارة في الارتفاع، فازدادت آلامها، تقطعت أوصالها، تباعدت أجزاؤها، تحولت إلى بخار.

ساد الصمت فترة ليست بالقصيرة، تنفّست القطرة من جديد، نعم تحولت إلى صورة جديدة، ولكن تدب في أرجائها الحياة، تجري مع آلاف القطرات، تشعر بضعف، والترابط هو الحل الوحيد، فهم الآن في مهب الرياح.

نادت بصوت مرتفع: "لنتماسك أيها البخار، لنقف أقوياء، لن نخضع، لن نستسلم للأهواء".

صمدت، تبعها الكثيرون، كونوا سحابة عظيمة، ضربتها الرياح بشدة، لتفتتها إلى آلاف القطع، لتسقطها من السماء، لتذيقها ألوان العذاب.

وقفت السحابة في وجه الرياح، أعجبتها السماء، آنست فيها حرية لم تعهدها من قبل.

علمت الرياح أن الحرب المكيدة، فقد مارست هذه اللعبة منذ سنين، وأن في الفُرقة السيادة، تعرف جيداً أنها لن تستطيع هزيمة كل هذا السحاب، فأشعلت بينهم البغضاء، فتملكت الكراهية قلوبهم، وساءت العلاقات، بدأ السحاب في التشاحن، فتصادموا بقوة، لم يعلم أحد من بدأ الشجار، لكن الحرب بينهم اندلعت،فقلت قوتهم،ضعفت مكانتهم، وتساقط معظمهم أمطارًا، ومن بقي منهم لم يعد قادرًا على مواجهة الرياح.

حاولت قطرة الماء أن تجمع شتاتهم، توحِّد صفهم، ولكن هيهات، فالجميع رضي بأن يترك السماء، ويعيش في ذلٍّ وهوان.

لم تستسلم قطرة الماء، بل قاتلت ببسالة، لم تخشَ البرق الشديد، لم يزلزلها الرعد الذي زلزل كل السحاب.

هل ماتت؟ أم سُجِنت وراء الغيوم؟

انتهت أسطورتها؟ أم في يوم ما ستُبعث من جديد؟

تخترق الغيوم، توحد الصفوف، تحارب حربًا عظيمة، تطهر الأرض، تجري الأنهار، فتنبت الأزهار، تغرد الطيور، ويعم الخير من جديد.

يلعب الأطفال في أمان، تحت ظل سحابة لا تحجب الشمس، بل تقف أمام الرياح.

هذا ما قيل لي وأنا صغير، ومنذ ذلك الحين أنظر إلى السماء، أبحث عن قطرة الماء، أنتظر عودتها من وراء الغيوم.

أين الطريق؟

أيها الراوي.. اترك لي دقيقتين، لا تنهِ دوري سريعًا؛ فأنا ما أزال أبحث عن الإجابة!

هل أستطيع أن أدرك الفتاة في دقيقتين بعد أن ضاع مني الكثير من السنوات؟

أين الفتاة، صرخات متباعدة تقترب، يجب أن أعثر على الفتاة قبل الجميع، فهي الوحيدة التي تعرف الطريق إلى الحقيقة، أشعر أنها قريبة، أسمع أنفاسها اللاهثة، دقات قلبها المتسارعة، أيتها الفتاة لا تخافي، أين أنت؟ فأنا لا أملك سوى دقيقتين؟

***

تجلس في أحد الأزقة الضيقة، تتوارى عن عيون الناس ترتعد خوفًا، الكل يبحث عنها بعد أن علموا أنها الوحيدة التي تعرف الطريق، فهي آخر فتاة تمّت ولادتها، لذلك فهي أصغر فتاة في القرية.

الجميع يبحث عني.. ماذا أفعل؟ فأنا خائفة، ليس ذنبي أن أحلامي تتحقق، ليس ذنبي أني أعرف الطريق الوحيد للخروج، لن أبوح بالسر لأحد حتى أضمن نجاتي، لكني صغيرة خائفة، لن أستطيع أن أكمل الطريق وحدي، أين أبي؟ أين أمي؟ لا.. لن أبكي كعادتي، سأقف صلبة أمام الجميع، فأنا فتاة قوية، بل وحيدة تعرف الطريق.

***

فتاة صغيرة لم تتعدَّ بعد التاسعة من عمرها، تعلَّمت معنى الوحدة منذ نعومة أظافرها، لم يُعرها أحد أي اهتمام من قبل، حتى أصبحت بين يوم وليلة محل أنظار الجميع، فالجميع يريد الخروج من تلك الحياة المملة، بعد أن عرفوا كل شيء فيها، بل زهدوا كل شيء، تبدَّد أملهم منذ زمن حينما سكتت الضحكات الصغيرة الملائكية، حينما توقفت الأصوات الهامسة، الناطقة بحروف صغيرة، بعد أن توقف الجميع عن الإنجاب، لم يفلح أي دواء، علم الجميع أنهم في طريقهم إلى الزوال، تعلَّموا نوعًا جديدًا من الخوف، فقد كانوا يعتقدون أن أكبر مخاوفهم هو الموت، لكن الزوال أضحى أخطر بكثير.

شابٌّ وحيد أراد الخروج، لكنه لم يتبقَّ له في تلك القصة غير دقيقتين، ضيَّع الكثير من الوقت في البحث عن اللاشيء،

لكنه أخيرًا أدرك وجهته الحقيقية.. إنها الفتاة، يبحث عنها، ليس لأنه يريد معرفة الطريق، لكن لأسباب خاصة لا يعلمها إلا هو وكاتب القصة.

وأنا راوي القصة، قرأت العديد من القصص، استمتعت في بعض الأحيان بدور الراوي، حيث لا تطالني الأخطار، لكني في أغلب الأحيان وددت لو أشارك في الأحداث، وأن أنزل إلى أرض القصة، أختبر العديد من الأحاسيس من حب وخوف على فقد المحبوب، أو كره ولذة طاغية في الانتقام، أن أتوقف عن مشاهدة اللعبة من بعيد وأشارك في اللعب. لكني ارتضيت بدور الراوي وقبلت بالشروط، وهي أن أسرد فقط ما أمامي من صفحات، صفحة بصفحة حتى الصفحة الأخيرة، بالترتيب الصحيح الذي أراده كاتب الرواية، بذلك لا أعرف النهاية إلا في آخر صفحات الرواية، وأن أتابع الأحداث وأسردها حتى لو كنت رافضًا حدوثها، وأن أرى الظلم ولا أحاول تغييره، أسير دائمًا وراء الكلمات والحروف، ولا أخرج أبدًا عن المألوف. فأنا مجرد راوٍ.

***

يتجمَّع مجموعة من الناس حول الفتاة، الجميع يريد أن يعرف منها الحقيقة، أسئلة متعددة، أصوات متداخلة يهدم

بعضها بعضًا، ينظرون للفتاة على أنها وسيلة لمعرفة ما يريدون، لا يضعون لبشريتها أي وزن، فقد ماتت قلوبهم منذ زمن بعيد، يلقون بشباكهم على الفتاة، تتوه الفتاة في بحر من الظلمات، يقترب الجميع منها، ترتعد خوفًا، تتعالى دقات قلبها، تهرب الدماء من عروقها، تشعر كم هي وحيدة تفتقد الأمان، تنظر إلى السماء، تترقرق الدموع في عيونها الصغيرة الصافية، تمتزج دموعها مع زرقة عيناها كأنها بحر مسجون بين شاطئين منذ زمن بعيد، يقترب الجميع منها، تغمض عينيها، تمتد يد حانية تخطف الفتاة، يحملها، يجري مسرعًا بعيدًا عن الناس، إنه الشاب الذي لم يبقَ لديه غير دقيقتين، آسف.. لم يبقَ لديه إلا دقيقة واحدة، يدخل بناية مهجورة، يضع الفتاة على الأرض، يفتح بابًا سريًّا صغيرًا.

***

أيتها الفتاة الصغيرة، قد حان الوقت للهروب، هذا الباب الصغير يؤدي إلى الغابة، أنت تعرفين الطريق.

الفتاة: ألن تذهب معي؟

- لن أستطيع؛ فأنا أمامي دقيقة واحدة، سأغلق الباب وراءك، وأتخذ طريقًا آخر حتى يبتعد عنك الناس.

اقترب من الفتاة، طبع على جبينها قبلة رقيقة.

أعطاها دبًّا صغيرًا قائلًا: إنه دب سحري سيحميك، نظر لها نظرة مودِّع، أغلق خلفها الباب، أغمض عينيه لحظات قليلة يريد أن يحتفظ برؤية الفتاة ليستطيع أن يجتاز آخر دقيقة له في الرواية، لاحت تساؤلات عدة في رأسه، هل أدرك حقًّا غايته التي كان يبحث عنها؟ أن يساعد فتاة صغيرة بعد أن أصبحت مطاردة من الجميع، أم إنه كان يريد أن يشعر بدفء العائلة من جديد؛ حتى ولو كانت لحظات معدودة؟ سقطت دموعه على الأرض، أما أنا فسقطت دموعي لتبلل أوراق الكتاب، لا أستطيع القراءة لأكمل تلك الرواية، أريد أن أساعد الفتاة؛ فهي الآن أصبحت وحيدة، لكني مجرد راوٍ لا يستطيع أن يتدخل في أحداث الرواية، مسحت دموعي لأستمر في القراءة.

***

تحتضن الفتاة الدب، تجرى مسرعة، تتذكر الحلم، تبحث عن بداية الطريق.

يجري الشاب مسرعًا، يجري وراءه الناس ظانِّين أنه عرف الطريق من الفتاة، يقترب منه الناس، يسقط على الأرض من شدة الإعياء، هكذا يظن الناس، لكنه في الحقيقة سقط لأن الدقيقة انتهت، يلتقط أنفاسه الأخيرة، يتوقف قلبه عن الخفقان.

يسقط الدب من يد الفتاة، تظهر في عينيه نظرة حزينة، تمسكه الفتاة، تصرخ قائلة: أيها الراوي اعطِ الشاب وقتًا من وقتي، لا تترك دوره ينتهي.

- آسف يا صغيرتي، لا أستطيع مساعدتك، أرجوكِ لا تعذبيني أكثر من ذلك، كم وددت لو أساعدك ولكن!

***

تدخل الفتاة الغابة، تتعمق في دروبها المتفرعة، تبدأ الشمس في الغروب، تلملم أشعتها المائلة للحمرة، يبدأ الليل زحفه ببطء إلى أن يحتل السماء، يبسط نفوذه على الأرض وما بها من أحياء بقوة، تدرك الفتاة سطوة الليل الحقيقية؛ فهو الآمر الناهي في الغابة، تشعر برهبة حقيقية، تتسلق شجرة لتنام على أحد فروعها الكبيرة، ناظرة إلى السماء، تحاول أن تجد وجه أهلها بين النجوم، فلقد قالت لها عجوز ذات مرة: "إن روح أبيك وأمك يراقبانك من السماء.. هم دائمًا معك".

غلب الفتاة النعاس، أثقل جفونها النوم، سبحت في حلم من أحلامها الغريبة التي أصبحت تتحقق مؤخرًا، رأت الشاب يسقط في بحر متلاطمة أمواجه، يرفع يده عاليًا عَلَّه يمسك بشيء يساعده على الصمود، تمد الفتاة أناملها الرقيقة، تمسك

يد الشاب بكل قوة، يحاول البحر أن يبتلع الشاب، تحاول الفتاة سحبه بكل قوة إلى أن تنجح في سحبه...

تستيقظ الفتاة، تبدو على ملامحها الدهشة، الفرح، الخوف، التساؤل: هل حقًّا سيتحقق هذا الحلم؟

يشهق الشاب بقوة كأنه نجا توًّا من الغرق، يفتح عينيه، إن دوره لم ينتهِ بعد، ينتظر دقيقة، ما زال قادرًا على التنفُّس، يهبُّ مسرعًا، ينظر خلفه ليتأكد من خلو المكان، يذهب مسرعًا تجاه الغابة باحثًا عن الفتاة.

***

في المدينة الكبيرة يجلس الملك على عرشه، يحيط به عدد كبير من الفرسان، يسألهم: أين الفتاة؟ يجيبه قائد الفرسان بكل خضوع: لقد بعثت أفضل ثلاثة رجال ليأتوا بها إلى سموِّك.

أراد الملك الفتاة، ليس بحثًا عن الطريق، فهو لا يستطيع أن يترك الحكم أبدًا، كما يقول: "الموت هو الوحيد القادر على سلبي ملكي".

إنما أراد الفتاة حتى يكون الطريق في يديه؛ ليبسط نفوذه على كل شيء، كما تعوَّد دائمًا، قالوا عنه إنه من القسوة أن يعذب الجميع إن خالفه أحد الرأي، ومن القوة أن يقف أمام

الجميع وحيدًا لا يطرف له جفن، حكم المدينة في ريعان شبابه، واستمر حكمه فترة طويلة، ومع مرور الوقت ازدادت عيوبه، أو بالأحرى ظهرت عيوبه، إلى أن أصبح كما هو الآن.

أما شعبه فقد نسيه منذ زمن بعيد، أصبح يعيش في قصره متجاهلًا ما ألمّ بالشعب من مصائب.

يتلاعب بالشعب اللصوص من كل صنف ولون، ساد الدنيء، وتحكّم الجاهل، وتسلّط المجنون، وبات الحكماء طي النسيان.

***

تقطف الفتاة بعض الثمار الطازجة، تغسلها جيدًا في النهر، فهي تشعر بأنها سترى الشاب اليوم، يطل عليها ظل من بعيد، تختبئ حتى تفاجئه، يقترب الظل أكثر، يظهر معه ظلان آخران، إنه ليس هو، تبدأ في الركض مسرعة، يلحق بها أحد الحراس، يسقط الدب من يدها، يأخذها الحراس إلى الملك.

يبحث الشاب عن الفتاة في الغابة، يدرك من آثار الثمار المبعثرة، والدب الملقى وحيدًا في الغابة أن الفتاة ليست بخير، يذهب إلى المدينة يتقصّى الخبر، يعلم أن الفتاة أصبحت لدى الملك، ترتعد أوصاله بمجرد التفكير في أن تلك الحمامة الرقيقة،

تسكن أحد أقفاص ذلك الوحش الكاسر كما يطلق عليه أهل المدينة.

يشعر بحيرة كبيرة، كيف ينقذ الفتاة، وهو يخشى أن يمر من أمام قصر الملك؟

يخشى أيضًا أن تقابل الفتاة الملك، فنظرة واحدة منه ستجبرها على إفشاء سر الطريق، وستضيع فرصتها في النجاة إلى الأبد؟

يتوجه إلى السماء متسائلًا ماذا يفعل؟

يعلم أن الوحيد القادر على إنقاذ الفتاة هو رب الفتاة، أما هو فاقترب من القصر ينتظر معجزة أخرى.

***

تقف الفتاة أمام الملك، يسألها: أين الطريق؟

تسكت، يسألها بحدة أكثر: أين الطريق أيتها الصغيرة؟

لا تجعليني أعذبك، فأنت أصغر من أن تتحملي عذابي، ألا تعلمين من أنا؟ أنا الملك!!!

أيتها الفتاة.. دليني على الطريق، وسأحضر لك كل ألعاب المدينة، كل ما تتمنين من طعام، ملابس جديدة، سأجعلك

تسكنين أحد قصوري، وتعيشين أميرة بقية حياتك؛ فأنا وحيد وأحتاج صحبة.

الفتاة: لكني أريد أن أكمل الطريق؛ فإنه قدري؟

الملك: قدرك! أتدركين حقًّا معنى القدر، أو حكمة القدر، أنت أصغر من أن تعلمي هذه الأشياء، لقد علمتُ الكثير، حاربت في حروب عديدة، طفت الكثير من البلدان، فقدتُ أعز ما أملك، حكمت بالقوة سنوات عديدة، عشت الكثير والكثير من التجارب، اختبرت كل شيء، لقد اختبرت الحياة.

ردت الفتاة: لكنك لم تختبر شيئين بعد.

انتفخت أوداج الملك، واحمرَّت عيناه غضبًا، أضحى صوته أكثر غلظة: ما الذي لم أختبره بعد؟

- لا تغضب كثيرًا هكذا قالت الفتاة، فإنك لم تختبر الرفض، فهذه أول مرة تسمع كلمة لا، فأنا أرفض عرضك، أرفض أن أدلك على الطريق.

والشيء الآخر الذي لم تختبره بعد هو الموت.

***

صوت جلبة يأتي من القصر، لقد مات الملك، قتلته الفتاة الصغيرة، الجميع يتساءل كيف قتلت فتاة صغيرة الملك؟

بأحلامها الشيطانية؟ بسحرها؟ المهم أن النتيجة واحدة الملك مات، من سيحكم الآن؟!!!

إنهم لم يتصوروا يومًا موت الملك، لم يفكر أحد من قبل في البديل، فأولاد الملك ماتوا في ريعان شبابهم، أما الجميع فقد اعتاد على ظلم الملك ليصبح أمرًا مسلمًا به.

ساد حزن أحمق على فراق الملك، ليس لفراق الملك شخصه، لكنه إحساسهم بالضياع.

يصرخ الشاب في الجموع المحتشدة خارج القصر، لم تقتل الفتاة الملك، أحلامها ليست شيطانية، إنها دلالة قوية على نهاية كل ظالم، أيها القوم إنها الأمل الوحيد المتبقي لنا، أرجوكم اسمعوا، انظروا جيدًا، تعلموا لغة الإشارات الربانية، افهموا..........

لم يسمعه أحد، الجميع سكت، ارتضوا بأن تكون الفتاة هي كبش المحرقة، أرادوا أن يجهضوا آخر أحلامهم، يقضوا على الأمل الوحيد، فالفتاة يتيمة ولن يهتم لأمرها أحد، إذن قد قضي الأمر، فلنحاكمها كما نصّت القوانين الملكية، من يقتل الملك أو أحد أفراد أسرته يلقى حتفه حرقًا.

يصرخ الشاب غاضبًا: أيها الناس، أنتم الآن من تمارسون الظلم، تحكمون بأوامر الملك حتى بعد مماته!

تقتلون طفلة بريئة!!!!!

طاف الشاب على الجميع لكن لم يجبه أحد.

أيها الراوي، ماذا أفعل؟ فأنا وحيد..

- عزيزي الشاب، ألم تفهم الحكمة بعد، عندما تطلب شيئًا يجب حقًا أن تطلبه من ملك، ليس من ملوك الدنيا لكنه ملك مَلَك الدنيا كلها.

توجَّه إلى السماء، تعثرت الكلمات بين شفتيه:

أيها الرب الذي لا ينقضي معروفه أبدًا، لا ملجأ منك إلا إليك.

يا من لا يدوم إلا ملكه، يا من وسعت كل شيء رحمته.

انقطع رجائي إلا فيك، ضعف اعتمادي إلا عليك.

أقصد بابك طالبًا، وفي كرمك راغبًا.

أرجوك أن ترحم فتاة صغيرة، وأن ترحمني.......

هنا امتلأت عينا الشاب بالدموع، فهو لم يدعُ الله منذ فترة طويلة، هنا فقط أدرك أنه يأوي إلى ركن شديد، تردد في أذنيه دعاء أبيه لرب العزة: "صدق من حسبُنا به كفيلًا، صدق من اتخذناه وكيلًا، صدق الله ومن أصدق من الله قيلًا".

لأول مرة منذ فترة يشعر الشاب بالسكينة التي افتقدها فترة طويلة.

***

لم يعلم أحد كيف هربت الفتاة من براثن الحراس، حتى الشاب نفسه، فقد كان يجلس على شاطئ النهر، إذ بالفتاة تقترب منه، ترتمي في أحضانه، تمتزج دموع خوفها من الحراس بدموع سعادتها برؤية الشاب.

يربت الشاب عليها بكل حنان، يشتري لها بعض الطعام، يتوارى عن الأنظار خوفًا على الفتاة.

ينظر الشاب للفتاة، يتحقق من ملامحها جيدًا، فإنه لم ير لها شبيه من قبل، يسألها عن حكايتها..

الفتاة:

لا أعرف الكثير عن حكايتي، فقد قالوا لي إن شخصًا غريبًا أحضرني، قال لهم إن أهل القرية التي كنت أعيش فيها ماتوا من وباء غريب، وأنا الوحيدة التي نجت من هذا الوباء، وأودعني أحد الملاجئ، إلا أنه تم طردي من الملجأ خوفًا من أحلامي، هذا كل ما أعرفه عن نفسي، وأنت ما حكايتك؟

الشاب:

صدقيني يا عزيزتي، حكايتي لا تستحق عناء الحكاية، إنما هي درب من ضياع الوقت، لكن إن كنت تُصرِّين، فأنا شاب عادي، ولدت في أسرة متوسطة الحال، ترعرعت في قرية صغيرة، ثم انتقلت إلى المدينة، حاولت أن أبحث عن نفسي لكني وجدتني مجرد مؤدٍّ لأدوار عديدة اختارها لي أبي، أمي، أصدقائي، مجرد مؤدٍّ لم يتخذ قراره، حتى ولو كان هذا القرار خاطئًا، أكثر ما جرحني حقًّا هو أن الجميع اتهمني باللامبالاة، وبأنني دائمًا تابع، مع أنني كنت دائمًا أحرص على سماع نصائحهم، وأنفذها قدر ما استطعت، تنازلت عن الكثير من أحلامي رضوخًا لرغباتهم، لم أجرحهم يومًا، اتضح لي الموقف أخيرًا؛ فذات يوم اكتشفت سرًّا خطيرًا، أنني لم أجد لي مكانًا بين الجميع، لم يضعني أحد في حسابه، وجودي كعدمه، حياتي كمماتي، أي شيء بالنسبة لي سيَّان، فأنا في نظرهم مجرد شخص يسمع الكلام!!!

لذلك اتخذت أول قراراتي بأن أهجرهم جميعًا، وهمت على وجهي في الطرقات لا أعرف من أين أبدأ، حتى سمعت بأن هناك فتاة صغيرة أحلامها تتحقق، وأن الجميع يطاردها، شعرت أنك عائلتي، هدفي، بل غايتي الكبرى، شعرت أنك تحتاجينني، لكن أنا من أحتاجك أكثر.

هذه هي حكايتي.

الفتاة: إذن فلنبدأ حياة جديدة، نختار أسماء جديدة، ونكمل الطريق، أنا سأسميك "سيف" تيمنًا بحكاية كانت تحكيها لي عجوز في الملجأ عن ملك قوي وعادل حارب الشر في كل أوجهه، ساعد جميع المحتاجين من إنس وجان، أتعرفه؟! إنه الملك سيف بن ذي يزن.

الشاب: عزيزتي.. سأطلق عليك مَلَكْ، فأنت ملاكي الحارس في هذه الدنيا.

الفتاة: لكي نكمل الطريق ينقصنا شخص آخر، يجب أن نذهب إليها.

***

استيقظ سيف (الشاب) ليجد ملك (الفتاة) قد أحضرت حصانًا أسود اللون إلا من شعيرات قليلة بيضاء تختفي بين هذا السواد، نظر سيف للحصان متسائلًا.. أيوجد حقًا طريق من نور من بين كل هذا الظلام المحيط بهم؟!

انطلق الحصان مسرعًا فأمامهم رحلة طويلة حتى يصلوا إلى الجانب الآخر من الأرض، لذلك قد يخيل للرائي منكم أن الحصان يطير أو يعانق السحاب،

وفي الجانب الآخر من الأرض، نجدها حبيسة غرفتها لا تستطيع الخروج، حتى وإن حاولت فبالخارج يقف حارس ينفّذ أوامر والدها، وهي إقامتها الجبرية في غرفتها حتى ينظر ماذا سيصنع معها بعد آخر مصائبها – على حد قول والدها.

يدخل والدها الغرفة يصرخ مناديًا: ورد.. ماذا فعلت؟

ورد: لم أفعل إلا الصواب.

الأب: الصواب أن توزعي أموالي على الناس؟!

ورد: لقد وزَّعت جزءًا قليلًا على الفقراء والمساكين، كما أن هذا حقهم علينا نحن الأغنياء.

الأب: لماذا فهذا مالي أنا الذي جمعته، والجميع مثلي لا أحد يرمي تعب السنين الطوال مثلك على حفنة من الجياع.

ورد: أبي.. الجميع على خطأ، المال مال الله ونحن أمناء عليه، يجب أن نتكاتف معًا، ولا تخشَ زوال المال؛ فالصدقة تزيد المال لا تنقصه.

الجياع كثيرين، يجب أن نساعدهم وأن نقضي حوائجهم، يجب أن نترل من قصورنا العالية إلى مساكنهم البالية، أبي......

الأب: إن الحديث معك لا يجدي، فلقد دلَّلتك كثيرًا.

يخرج الأب ويتركها حبيسة غرفتها.

يجلس الأب مع صديقه يتناقشان.. ما العمل مع ورد؟! تلك الفتاة العنيدة، يقترح عليه الصديق الحل: "يجب أن تعمل ورد لتعرف قيمة المال والتعب، فلتجعلها تعمل في أحد الحقول، ولتسكن أحد هذه البيوت البالية، يجب أن تعلم أنها تخسر كل شيء بعصيانك".

فكر الأب كثيرًا.. رفض الحل في بادئ الأمر لكنه نفذه في النهاية.

***

حينما يتغلغل النور في القلب يختفي ظلام النفس، فبيت الداء في اعوجاج النفس هو القلب، وبالقرب فقط يزداد النور، ومع زيادة النور تُدْرك معانٍ جديدة، معانٍ لا تُدرَك بالكلام بل تدرك بالصمت، حينها فقط تتجلى العظمة، ويتعامل الإنسان بالبصيرة والبصر معًا.

فالذل بعد العزّ طامة كبرى عند أكثر الناس، لكنه رياضة لترويض النفس عند قلة ارتضت أن تقمع عنفوانها مقابل المزيد من القرب، تستبدل عزًّا زائفًا بحب جارف للعزيز الأحق بالعبادة.

فبعد القصر والخدم أصبحت ورد تعمل لتستطيع العيش، الأصعب من ذلك أنها تعلم أن كلمة واحدة منها سترجعها إلى رخاء ورغد، قد يعتبر البعض صبرها على هذا الهوان درب من الجنون، لكنها علمت أن مساعدة المحتاج طريق تحيطه الكثير من الصعوبات، لكن آخر الطريق فوز بنصيب من النور.

***

حينما تقترب من السماء تدرك أن الطريق ظاهر للجميع، لكننا من نغمض أعيننا ونتظاهر بالضياع، نسأل الجميع أين النور، أين الطريق، نتوجه بالسؤال إلى حيارى مثلنا، مع أننا نولد بالنور داخلنا، لكننا نطفئه بأنفسنا ونلعن الظلام ألف مرة.

يصل الحصان، يقف أمام كوخ صغير، يترل سيف وملك، تخرج ورد من الكوخ، يلتقي ثلاثتهم، وبهذا اللقاء يظهر الطريق، بل يظهر ثلاثة طرق، طريق أمام كل فرد منهم، تتقدم ورد، تدرك أن ملك هي الفتاة (الأمل)، كم كانت تتمنى أن يطول معها اللقاء، تقبِّل ملك قبلة تحية ووداع، تبدأ في السير في طريقها، فقد أدركت غايتها منذ أن ارتضت أن تترك نعيم القصور وأن تقضي حوائج الناس ما استطاعت.

ينظر سيف في عيون ملك، هل حقًّا حان وقت الفراق؟ هل حقًّا يستحق هذا الطريق؟ أن يساعد الضعفاء، يقف في وجه الظلم والعدوان، أن ينال السكينة بعد أن فقدها سنين.

اقترب من ملك، امسك أناملها الرقيقة..لن أبكي يا عزيزتي فستبقي في قلبي دائمًا؛ فأنت طريقي في هذه الدنيا، لن أخشى عليك بعد الآن، لأني أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه أبدًا، يترك ملك، يسير في طريقه.

أما ملك فتسير في آخر طريق، لتزرع في القلوب الأمل، تنير الجانب الطيب في كل إنسان ليبحث عن طريقه.

تستمر ملك في نشر الأمل في البيوت، حتى تجد بيتًا منعزلًا، تطرق على الباب ليفتح الراوي، تبتسم، أيها الراوي، قد حان الوقت لأن تشارك في الأحداث، أن تعيش معترك الحياة، تقع آلاف المرات، لكن تصمد، ففي النهاية ستجد الطريق، أعلم أنك تخشى أن تتوه في أحد الطرق المهلكة، وأن تضيع في الظلام، ازرع في قلبك بذرة من نور لتكبر في يوم من الأيام وتقودك إلى الطريق الصحيح، عندئذ فقط ستشعر بجمال القرب من الله وتصبح حقًا إنسانًا.

حان وقت الرجوع

أحملها بين ذراعي، مغمضة العينين، ينساب شعرها الأسود على كتفيها، وتداعب خصلاته الهواء.

أصرخ بأعلى صوتي: النجدة...

تسيل من جراحها الدماء بعد ذلك العدوان، طفلة لم تكن تعرف معنى البكاء، ولكن الألم يعلّم الكثير.

تتوارد في عقلي الخواطر، ضياع كل شيء لها أم لي أم وجدت في صحبتها العزاء.

آلام جراحها تسري في أوصالي، لم تتوقف قدماي عن الجري بحثًا عن طبيب، أصرخ بأعلى صوتي؛ فهل من مجيب؟

توقفت، سقطت، نظرت إلى السماء، تراءت لي عيوبي، أثقلتني ذنوبي، كيف أدعو ربًّا أعصاه!

ترقرقت في عيني الدموع، وجدت صوتًا ينادي، وظهر رجال، حملوا طفلتي مسرعين، ذهبت معها، ليلة أو ليلتان أنتظر بجانبها لكي تفيق.

جاء الطبيب متسائلًا عن قرابتي لها، ولكني لم أكن بقريب، أو جار، بل كنت عابر سبيل، قاصد مدينتي، أحاول الرجوع، أبحث عن طريق. بعد أن دُكّت مدينتها بأيدي الطغاة، فوجدتها من الجراح تتألم والدماء من الجراح تسيل، فحملتها.

فأجابني الطبيب: اتركها حتى نستدلّ لها عن قريب.

ألا يكفي أن أكون إنسانًا؟!!!!!

لم أتركها، بدأت جراحها تلتئم، نظرت إليها فنظرت إلي.. (لا تتركني)، امسكت يدي بكل حنان، بدأت دموعها تسيل، تذكر أهلها بين جريح وقتيل.

⮉أستترك طفلة لم تبلغ عشر سنين؟

- ولكني لست لها بقريب، وهم يرفضون.

⮉أسترضخ لرفضهم؟ انظر إليها كيف نامت مطمئنة بوجودك بجوارها.

- ارحمني أيها الضمير، كيف آخذها وسط هذا الدمار؟!!

⮉إذن.. أتتركها وسط الدمار؟! خذها إلى الأمان، احملها حتى تبلغ الديار. لا تتركها للهلاك.

أيقظتُها وحملتها بين ذراعي، احتضنتني وهمست في أذني باسمها لأول مرة.

- أتتكلمين؟!

الفتاة: نعم، ولكن أبي منعني من التكلم مع الغرباء، ولكنك لم تعد من الغرباء.

إذن حان وقت الهرب من كل شيء، لم تسألني إلى أين، أغمضت عينيها كأنها وجدت غايتها، بل أنا الذي وجدت غايتي، قد تكون السبيل إلى الرجوع، ليس فقط إلى مدينتي، بل لرب عظيم.

أزحت عن كاهلي الذنوب، وبدأت السير في الدروب، ليلتان نسير وليس معنا من الطعام الكثير، وجدنا بيتًا مهجورًا فدخلنا لنستريح.

أضأت شمعة صغيرة، وجلست طفلتي بجواري تدفّئ أصابعها الرقيقة، وبدأت عيونها في البريق، كأنها بدأت تستعيد طفولة سُلبت منها بآلاف الطلقات.

أيقظتني لمسةٌ رقيقة من يد طفلة لم تغيرها بعد الحياة، وبدأنا نسير بحثًا عن الطريق، إذ بأنهار دماء تعلو الطرقات، فحملتها خشية أن تلوثها الدماء، فلقد لوثتني منذ سنين.

وضعت رأسها على كتفي، أغمضت عينيها، أعلم أن هذه المناظر ستؤرّقها لليالٍ طويلة، ازدادت الطلقات من كل اتجاه،

انفجارات في كل مكان، فجريت مسرعًا وهي تصرخ من الخوف.

ضممتها إليّ بكل حنان، وأشرت إليها لتنظر إلى الحدود، لقد وصلنا إلى المدينة، وبينما نحن نتخطى الحدود إذ بها تنظر إلى مدينتها، ألن تساعدوها؟

لم أجد إجابة، ولكني وجدت الطريق، فبيتي يظهر من بعيد، أنزلتُها لتسير على الطرقات، فبدأت تجري في حرية، وارتسمت على وجهها ابتسامة.

أعددت لها غرفة صغيرة، أمسكت أصابعها الرقيقة، حان الآن وقت النوم بأمان.

لا أعلم لمتى قد يطول الوقت قبل قدوم الطغاة، أم ستكتب لنا النجاة؟!

بدأت أحكي لها حكاية بطل من الأبطال، في يوم ما سيحرر الأرض ويحمي الأطفال، ويعيش الجميع تحت رايته في سلام.

رحلة إلى العالم الآخر

من منا لم يحلم بهذه الرحلة؟

رحلة إلى المجهول، الكل سيذهب في هذه الرحلة، مستخدمًا تذكرة ذهاب فقط، فالذهاب معناه الموت.

لكن قليل فقط من الناس من وقف على الخط الفاصل بين الحياه والموت، تلك اللحظات التي لا يحتسبها الزمان، ففيها تكون نهاية للجزء الأول من الحياة، ويتبعها دائمًا بداية مختلفة للجزء الثاني من الحياة.

أما هي فامتدت لحظاتها إلى ساعات بل أيام، لا تعلم متى النهاية، لكنها تعلم شيئًا واحدًا فقط، أنه لا توجد بداية جديدة، إنما فقط نهاية.

دخلت غرفتها،صلّت ركعتين،أخرجت صورتين، وضعتهما بجانبها، أغمضت عينيها، فلتكن النهاية.

صراخ طفلة يأتي من بعيد، وقفت صارخة: ابنتي.

خرجت من منزلها، هامت على وجهها في طرقات تدكها الطائرات، صراخ يأتي من كل مكان، دماء تسيل لا تشربها الأرض، فالأرض ارتوت منذ زمن بعيد، استمرت في الجري تجاه الصوت، إنها هناك، اقتربت من الفتاة، احتضنتها، قبَّلت جبينها، أزاحت خصلات شعرها السوداء لترى وجهها، توقفت عن الحركة، فابنتها شعرها ذهبي اللون، إنها ليست أبنتها، صرخت، بكت، سقطت على الأرض، تذكرت، فابنتها ماتت منذ أيام، تمددت في وسط الطريق، فلقد سئمت الحياة، اقتربت منها الفتاة، فتاة لم تعرف بعد بداية، فتاة لم تلعب من قبل في طرقات المدينة.

احتضنت الفتاة، أخذتها إلى منزلها، قدمت لها فتات خبز، وشربة ماء، ألبستها ملابس ابنتها التي قتلتها الغارة، خرجت إلى الطرقات، تصحب في يدها فتاة لم تبلغ من العمر الكثير، تقف على تلك الحافة الفاصلة بين الموت والحياة، تقطَّعت بها سبل الرجاء إلا من الله، فالجميع باع المدينة، وأهلها منذ زمن بعيد.

تقترب الطائرات، تحتضن الفتاة بقوة، تختلط دماؤها بدماء الفتاة، تسير الدماء في الطرقات التي لم تعد تشرب الدماء منذ سنين.

الفهـــــرست